

في الأدب الفرنسى

الذئب فى الأدب العربى والفرنسى (١)

— ٢ —

وانا لترعى الوحش آمنة بنا ويرهبنا إن نغضب الثقلان
لاريد بذلك الا أن يدلنا على ماعنده من كرم وسخاء ،
وشجاعة عند اللقاء ، لا يصرفه عن طعامه أقبال الذئب عليه
ووقوفه بين يديه ، فهو الذى قد بينه وبينه الزاد ، وأناله منه
مأأراد ، مع أنه يعرف مالدئب من طبيعة الفتك والغدر ،
ولكنه يعتمد على ساعد قوى وسيف باتر .

فقصيدته اذن قصيدة بدوية ليس فيها غير التمدح بالكرم
والشجاعة ، والجمال الفنى فيها قليل .

ذئب البحرى

أما البحرى فقد قدم لنا قصة سينائية جميلة عن نفسه وذئبه :
وأطلس ملء العين يحمل زوره واضلاعه من جانبيه شوى نهذ
له ذئب مثل الرشاء يحره ومتن كمتن القوس أعوج منأد
طواه الطوى حتى استمر مريه

فما فيه ألا الروح والعظم والجلد
يقضقض عضلاً فى اسرتها الردى

كقضقضه المقرور أرعده البرد
سما لى وى من شدة الجوع مابه

بيداء لم تعرف بها عيشة رغد
كلانا بها ذئب يحدث نفسه

بصاحبه ، والجد يتعسه الجد
عوى ، ثم ألقى فارتجزت ، فهجته

فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد
فأوجرته خرقاء تحسب ريشها

على كوكب ينقض والليل مسود
فما ازداد الا جرأة وصرامة

وأيقنت أن الأمر منه هو الجد
فاتبعها أخرى فاضللت نصلها

بحيث يكون اللب والرعب والحق

قص علينا الشاعر الفرنسى « الفردده فىنى » حديث
المعركة التى نشبت بينه وبين الذئب ، وانتهت بموت الذئب
ميتة سكينه وطمأنينة ، بعد أن تظاهر عليه أربعة من الرجال
بينادقهم ومُداهم ، يشد ازهم فى هذه المعركة كلب من الكلاب
الضارية ، سقط هو قتيلا ، وأنياب الذئب الحادة فى عنقه
قبل أن يسقط الذئب قتيلا برصاص بنادق الصائدين ومداهم
فصور لنا فى هذه الحكاية صورة واضحة تمثل إقدام
الذئب وجرأته ، وثبات الأم ورسائتها ، تستبقى لتعلم أولادها
تحمل الجوع ، وتحيا لتحذرهم من احتمال الخضوع . وتمثل
كذلك احتقار الذئب للحياة وزرأته بها ، فقد تركها بعينيه
الواسعتين ، وأستودعها بنظرين قويتين ، أولاهما الى اعدائه ،
وثانيتهما الى أعضائه ، ثم اغمضهما ومات ميتة جبار ، بل أستاذ
فى الجبروت يحق أن يتلذذ عليه « فىنى » ليلقى عنه هذا الدرس
الأخلاقي . فكيف كان أمر شعرائنا مع ذئابهم ؟ ..
ذئب الفرزدق :

كان كل ماعرضه علينا الفرزدق من حديثه مع ذئبه أنه
عشاه وصرفه :

وأطلس عسال وما كان صاحباً دعوت لنارى موهناً فاتانى
فلما دنا قلت أدن دونك أنى وأياك فى زادى لمشتركان
فبت أقد الزاد بينى وبينه على ضوء نار مرة ودخان
فقلت له لما تكسر ضاحكا وقأم سيفى من يدى بمكان
تعش فان عاهدتى لا تخوننى نكن مثل من ياذئب يصطحبان
وانت امرؤ ياذئب والغدر كنتما أخين كانا أرضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى أذاك بسهم أو شباة سنان

(١) انظر العدد الثانى عشر من الرسالة ص ٢٩

فخر وقد اورده منهل الردى

على ظمأ لو أنه عذب الورد

وقمت فجمعت الحصى فاشتويته

عليه وللرمضاء من تحته وقد

فأرانا ذئبه رؤيا عين ، في لونه الأطلس ، ومنتنه الأعوج
المقوس ، وجسمه المنهوك ، وعظامه المقضقضة ، حتى ملا
قلوبنا رهبة منه ، وخوفاً على صاحبه ، ثم صور لنا المعركة
التي نشبت بينهما حتى كأننا نراها ، وكما أنه أجاد في تصوير تلك
المعركة وبراها الينا محسوسة مشهودة ، لم يقصر في تصوير
جرائته وجراة ذئبه ، واستماته كل منهما في الذب عن نفسه
والغيلة على عدوه ، حتى جعلنا نؤمن بعظمته وعظمة ذئبه .
كل ذلك في قوالب متينة محكمة في وضوح وجلاء ، وفن
بديع موق يملأ البصر والبصيرة ، ولعله قد وفق في هذا شعراً
إلى ما لم يوفق إليه أديب نثراً .

ذئب الرضى :

اما ذئب الشريف الرضى فانه ذئب البحرى نفسه ، وأما
الرضى فانه أبو عبادة :

وعارى الشوى والمنسكين من الطوى

أتيج له بالليل عارى الاشاجع

أغبر مقطوع من الليل ثوبه انيس باطراف البلاد البلاقع
قليل نعاس العين الا غيابة تمر بعيني جاثم القلب جائع
اذا فات شيء سمعه دل أنفه وان فات عينيه رأى بالمسامع
تظالع حتى حك بالأرض زوره

وراغ - وقدم روعته - غير ظالع

ولما عوى والرمل بينى وبينه تيقن صبحي أنه غير راجع
تأدب والظلماء تضرب وجهه الينا باذيال الرياح الزعازع
له الويل من مستطعم عاد طعمة لقوم عجال بالقسى النوازع
أخذ ظاهر ، وانتحال بين ، وهو مع ذلك قد أفاض على
حديثه من جمال الفن ما كاد ينسينا حديث أبى عبادة ، فلئن
فاته حسن تصوير البحرى للمعركة فلم يفته حسن اجمالها
وتصويرها في صورة صغيرة في بيت واحد :

له الويل من مستطعم عاد طعمة لقوم عجال بالقسى النوازع

دل به على جراءة في مبتدأها ، وظافر بالعدو في منتهاها .

فاذا وضعنا القصة الفرنسية الحديثة بجانب القصة العربية
القديمة وجدنا الفرق بينهما جلياً واضحاً ، فالقصة العربية
كل الغرض منها التمدح بالكرم والعطاء ، والأفتخار
بالثبات عند اللقاء ، وما هذه الصورة الخيفة التي صور بها
الذئب الا لينفذ منها الشاعر الى ما يريد من مدح نفسه بالشجاعة
فليس فيها صورة خاصة لموت الذئب وساعة نزعه ؛ بل
ان الشريط لينقطع عند خبر موته ، لأنه لا يهم هؤلاء
الشعراء الاسترحام عليه ، أو الرثاء له ، فهو عدو غدار
نال حتفه بسيف الشاعر البتار وكفى ، فليس بين موت ذئابهم
اذن وموت أى حيوان فرق .

وأما القصة الفرنسية فهي على وحدة موضوعها وصورة
ذئبها الخالدة التي ما تبرح مخيلة القارئ ، ولا تنفك
تعاوده كلما ذكر الذئب ، سامية الغرض جليلة المغزى
نبيلة القصد ، فالغرض منها اجتماعى تزييوى ذو
شأن ، فهو يريد أن ينه القارئ الى ما يجب عليه من أجابة
دعوة القدر بهدوء وسكون ، وتلبية نداء الموت في سبيل
الواجب برزانه وصمت ، لأن الصمت هو العظمة ، والبكاء
والأنين وأشباههما جبن ونذالة .

فقصيدة «فينى» إذن مجلية في الحلية التي أنشأناها ، وهى وحدها
تقرب من المثل الأعلى ، لأن العقلية غير العقلية والعصر غير
العصر وثقافة «فينى» غير ثقافة هؤلاء الشعراء .

سامى الدهان

محمود سلمى

صاحب الملكة العصرية
سفره بسبع وتوزيع عموم المجلات
والجرائد المصرية والسورية في العراق